الفصل الحادى عشر

الأمويون ١٠٥ — ١٢٥ هـ (٧٢٤ — ٧٤٤ م)

مبايعة هشام — حالة الإمبراطورية — أخلاق هشام — الشؤون في الشرق — فى أرمينيا ، فى أفريقيا ، فتنة الخوارج والبربر موقعة الأشراف — حنظلة — هزيمة البربر — الأندلس — النزعات الداخلية — سرعة تبديل الحكام — تعيين عبد الرحمن الغافقى — غزو شمالى فرنسا — موقعة طوروس — مبالغة مؤرخى الرهبان — الغزو فى فرنسا — الاستيلاء على أفنون — انتصار عقبة — مقتله — المشاحنات والمنازعات — فشل العرب فى فرنسا — سقوط خالد القسرى ثورة زيد فى العراق — مقتله — الدعاية العباسية — ظهور أبى مسلم الخراسانى — وفاة هشام

وبموت يزيد الثانى أفضت الخلافة إلى أخيه هشام بعد أن فتت فى عضدها العصبية القبلية ، وعصفت بها ريح الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، فكانت قبائل التركمان والخزر الوحشية يشتد ساعدها فى الشمال ، بينما كان الخوارج المتحمسون تلتهب قلوبهم سخطاً وموجدة ، ودعاة الفكرة العباسية يكيدون للأمويين فى الخفاء . وهكذا تضافرت شتى العوامل على تقويض دعائم الدولة الأموية فى الشرق ، بينما هلكت زهرة شباب العرب فى الحروب الداخلية والفتن التى كان مبعثها سياسة الحسد والوشايات ؛ كما أدت الثقة العمياء التى وضعها هشام فى وزرائه وإسناد مناصب الدولة إلى العناصر الهزيلة الجشعة إلى الخراب والتشريد . ومع أننا نرى — هنا وهناك — بضعة رجال كان يتألق نجمهم كما يتألق بريق الكواكب فى حلك الليل البهيم ، لما عرفوا به من الإخلاص للواجب ، إلا أن طبقة الموظفين على الجملة كادت تقفر قلوبها من روح الوطنية وحماسة الإيمان بسبب النفعية والمطامع الشخصية ؛ وقصارى القول

كانت البلاد فى تلك الأزمة الطاحنة تحتاج إلى شخصية قوية تقبض على دفة الأمور بيد من حديد . غير أن « هشاماً » كانت تعوزه المزايا الضرورية لمعالجة تلك المشاكل التى منيت بها الإمبراطورية العربية ، إذ كان ولا ريب أفضل من سلفه ، كما أصبح جو البلاط فى عهده أنقى من ذى قبل حيث حل الوقار محل اللهو والمجون ، وأنقذت العاصمة من أولئك الطفيليين الذين يعيشون عالة على المجتمعات كما احترمت تقاليد البلاد ، ولكن الصرامة التى كانت من أبرز صفاته اتخذت مظهر الغلبة والكآبة ، كما استحال تقتيره إلى بخل ممقوت ، وانضافت إلى جميع هاته النواقص هنات أخلاقية ذات بال ، إذ كان الرجل متعصباً فى آرائه ، ضيق أفق التفكير ، متشككاً بطبيعته ، فلم يأتمن أحداً من أصحابه ، وراح يعتمد على الجواسيس والمؤامرات للتفرقة بين صفوف الشعب ، وأصبح للوشايات ضلع كبير فى حكمه على الرجال وأعمالهم . وهكذا ذهب حكام قديرون ضحية الريبة والظنون ، كما أدى استبدال العمال وطغيانهم إلى نتائج وخيمة العاقبة .

ومن بين العمال القلائل الذين حافظوا على مناصبهم فى عهده الطويل « خالد ابن عبدالله القصرى » عامله على العراق ، الذى ظل متربعاً فى منصبه منذ تولية هشام حتى سنة ١٢٠ هـ . وهو من أشراف اليمن البارزين ، وقد استطاع بحصافته ولباقته أن يحافظ على التوازن بين القبيلتين المتنافستين فلم يقع بينهما قط خلال حكمه أى تصادم يذكر ؛ كذلك عامل المسيحيين واليهود بالعدل والإنصاف فرمم كنائسهم وفتح أمامهم أبواب الوظائف على مصراعيها ، غير أن تساهله وحنكته السياسية أثارتا عليه سخط المتعصبين ، وهى حالة لا يختص بها عصر دون عصر ولا بلد دون آخر . ومع أنه نال مؤازرة الخليفة وتمتع بحمايته ردحاً من الزمن ، إلا أن سقوطه برغم ذلك كان سريعاً كنجاحه الذى ظل يتألق بريقه طوال خمس عشرة سنة مما لم يسبق له مثيل قط .

الفتن فى السند

وما انقضت مدة وجيزة على مبايعة هشام حتى نشبت منازعات شديدة بين

المضريين والحميريين فى خراسان فلم يستطع قمعها بسهولة ، كما أعقبت تلك الحوادث فتنة أخرى قام بها أهل « الصغد » ، ويعزى سببها فى الواقع إلى جشع نائب أمير سمرقند الذى كان قد وعد بإعفاء من أسلم من الجزية ، ولكنه عاد وفرضها عليهم من جديد ، فثاروا لكرامتهم وعاونهم المستوطنون العرب برئاسة قائد عربى يسمى « الحارث » ، وكان يحقد على الوالى لنكثه العهد ، ومما يؤسف له أن أهل تلك البلاد استنجدوا بقبائل التركمان التى كانت وقتئذ تتجول فيما وراء النهر ، فآزروهم على حكامهم المسلمين .

أسعد القصرى والى خراسان

وهكذا نشب القتال بين الفريقين ، وظلت المعارك سجالا ردحاً من الزمن حتى اضطر « خالد » عامل العراق أن يعهد إلى أخيه أسعد مهمة إعادة الأمن ، وما هى إلا برهة حتى زحف الثوار على جيش المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الثوار وطردهم من فرغانة ، وقد ظل أسعد يعمل السيف فى رقابهم حتى أجبرهم على الارتماء فى أحضان التركمان ، تلك القبائل الرحّل التى أصبحت فيما بعد مصدر رعب عظيم للسكان الآمنين . ولم يكد ينتهى عام ١١٩ هـ حتى اجتاح « أسعد » هضابهم الوعرة وغشى « خوتال » شرق « فرغانة » . وفيما عدا مناوشات طفيفة فإنه لم يستطع التغلب على الثائرين فى موقعة حاسمة نظراً لقرب الموسم ، ولذلك عاد إلى « بلخ » لقضاء موسم الشتاء فيها ، كما سمح لجنوده بالعودة إلى بلادهم .

وقد رأى التركمان فى انسحاب جيوش المسلمين فرصة سانحة لاستئناف أعمال الهدم والتخريب . فاجتاحوا ثانية ما وراء النهر وأطلقوا أيديهم سلباً ونهباً ، فسارع « أسعد » إلى جمع رجاله بإضاءة المشاعل على رؤوس التلال والهضاب ؛ وما أن التأم جمعهم حتى انقض بهم على الثائرين انقضاض الصواعق وأثخن فيهم القتل حتى أفناهم عن آخرهم ما عدا الخاقان [١] الذى لاذ بالفرار

(١) هو لقب رئيس قبائل التركمان ، وقد أطلق العرب هذا الأسم على جنكيز وخلفائه من بعده .

ولكنه مع ذلك لم يلبث أن فتك به أحد أصحابه . وعنـد ما انتهى خبر هذا النصر إلى مسامع « هشام » لم يصدقه فى بادئ الأمر ، إلى أن جاءته الرسل تؤكد له صحة الخبر ، فاستبشر خيراً وحمد الله على خلاص المسلمين من الخاقان ومن جيشه ، وألبست « دمشق » حلل الفرح والنصر . غير أن « أسعد » لم يتمتع طويلا بثمرة هذا الفوز ، إذ توفى سنة ١٢٠ عقب عزل أخيه عن إمارة العراق . فولى بعده « نصر بن سيار » واستطاع بالرغم من المؤامرات التى حيكت حوله أن يحافظ على منصبه حتى وافته منيته عام ١٣٠ هـ . وكان معتدل الآراء ميالا إلى ترقية شعبه ، كذلك لم تكن إدارته قبيل الفتنة التى نشبت بين المضريين والحميريين صارمة قط ، بل كانت موسومة بسمة العدل والإنصاف . ومما يؤثر عنه أنه كان قد عرض على أهل « الصغد » الثائرين الذين اعتصموا بمناطق التركمان أن يعودوا إلى ولائهم للخليفة ، فاشترطوا لذلك ألا يضطهد أحداً منهم لعقيدته الدينية ، وألا يعاقبه من غير محاكمة ؛ وألا يعتبر الارتداد عن الإسلام جريمة يعاقب عليها ؛ فقبل « نصر » هذين الشرطين ؛ وعندئذ عادوا إلى بلادهم وتمتعوا فيها بنعمة الحرية والعدل .

تولية نصر بن سيار على خراسان

وفيما كانت كل هذه الحوادث تجرى فى آسيا الصغرى ، اجتاحت عشائر القوقاس شمالى فارس وأرمينيا ؛ وفى عام ١٠٨ هـ غزت قوة أخرى من التركمان بلاد فارس وأزربيجان ، فسير عليهم الخليفة جيشا هزمهم شر هزيمة وأجلاهم عن البلاد ، بيد أن سهولة دخول المغيرين إلى فارس أغرى القبائل التركمانية الأخرى بغزو الأراضى الإسلامية ، فلم تكد تمضى أربع سنوات حتى زحفت قوة كبيرة من الخزر على أرمينيا ، ودارت بينها و بين المسلمين عدة معارك رائعة منى فيها المسلمون بعدة هزائم كان آخرها موقعة أربيل [1] حيث قتل « الجراح » ، ومن

شمالى إيران وأرمينيا

(١) مدينة كردية من مدن العراق على مقربة من نهر الفرات ، فيها ولد قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان سنة ٦٠٨ هـ ، وبقربها انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق . م . (المعرب)

ثم أخذت هاته القبائل تتقدم بسرعة مدهشة دون مقاومة ، حتى غشيت حدود الموصل ، وهنالك صمد لهم « سعيد الحرشى » فى قوة كبيرة من بعض المتطوعين الذين كان هشام قد أنفذهم من دمشق ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة انهزم على أثرها المغيرون شر هزيمة ، وفروا إلى جبال آراس تاركين وراءهم الأسرى وجميع الغنائم التى كانوا قد استولوا عليها فى أثناء توغلهم فى تلك البلاد .

إعادة تولية مسلمة

وقد كان هشام متقلبا لا يستقر على حال ، وبتلك العقلية المتقلبة عزل « سعيدا » من الحكم وعين « مسلمة » مكانه ، غير أنه لم يلبث طويلا أن عزله بعد سنة ، وعين فى محله « مروان » الذى أفضت إليه الخلافة فيما بعد . وقد استفتح « مروان » حكمه باحتلال بلاد الخزر وكورجيا واللسغ والأمصار الجبلية الأخرى ، بيد أن الحروب المتواصلة التى اشتبك فيها مع القبائل الشمالية استنفدت جميع أموال الخزينة . كذلك عصفت فى تلك الأثناء ريح الفتن بجنوبى بلاد العرب ، كما ثار الخوارج فى العراق فى عدة فرص اضطر فيها الحكام إلى استخدام قوات كبيرة لقمع حركتهم . أما أفريقيا والأندلس فقد سارت الأمور فيها سيراً هادئا مدى حين ، وألحقت بعض الولايات بالإمبراطورية العربية . كما أسلمت بلاد السود فى سنة ١١٥ هـ ، وتم إخضاع سردينيا وصقلية عام ١٢٢ هـ . أما سراكوسيا فقد خضعت نهائيا عقب معركة رائعة بين أهلها وبين العرب الذين كانوا فى ذلك الحين قد استولوا على بعض المواقع المنيعة فى فرنسا . ويمكن القول بأن الحظ كان وقتئذ قد بدأ يبتسم لهشام فى الغرب ، ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عصفت بأفريقيا الشمالية ريح فتنة هائلة قام بها البربر والخوارج معا ، كما ظهرت فى ذلك الحين فرقة جديدة من المتحمسين فى (القيروان) وأطلقوا على أنفسهم اسم « الصفرية » وأصبح لا يدانيهم فى قسوتهم وتعصبهم غير « الأزارقة » فى المشرق ، وراحوا يصبون جام سخطهم على مضطهديهم وينكلون بهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ؛ كما اعتبروا الذين يقولون بخلافة

جنوبى بلاد العرب

أفريقيا والأندلس

بنى أمية كفرة مارقين . كذلك روعتهم اضطهادات ابن الحاكم الذى ناب عن أبيه فى « تنغيرة » ومحاولته فرض الجزية على المسلمين ، فتضافرت تلك الفئة مع البربر وألفوا كتلة واحدة ثم اشتبكوا مع جيش الخليفة فى معركة رائعة قتل فيها الحاكم نفسه ، واستولى الثوار على المدينة ، وما هى إلا برهة حتى زحفوا من تنغيرة إلى القيروان ، فأوقف الخليفـة فى الحال الجيش العربى فى صقلية وأمره بالعودة إلى أفريقيا لقمع تلك الحركة الخطيرة .

وفيما كان الثوار يزحفون على العاصمة فاجأهم ابن والى صقلية المدعو « ابن حبيب » فى قوة صغيرة لا تكاد تصلح لمنازلتهم . ولـكنه مع ذلك هجم عليهم بجيشه الصغير وعدته الوحيدة الشجاعة والاستبسال ، وهما أبرز ما يمتاز به العربى غير أن البطولة والشجاعة لا يجديان فتيلا فى مثل تلك المواقف الحرجة ، فـكسر القواد أغماد سيوفهم وتقدموا صفوف الجيش ودارت بين الفريقين معركة دامية ، ولـكن البربر أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وكادوا يفنوهم عن آخرهم . وتعرف هـذه المعركة المشؤومة فى التاريخ الإسلامى « بغزوة الأشراف » نظراً لـكثرة من قتل فيها من سادات العرب وأشرافهم . وقد أدى هلاك جيش « ابن حبيب » إلى تمرد القبائل فى سائر أنحاء أفريقيا الشمالية مما أثر تأثيراً سيئا حتى على الأندلس نفسها ، فثار أهلها على عاملهم وانتخبوا مكانه قائداً كان الخليفة قد عزله من قبل . ولما علم هشام بانتصار البربر وفتكهم بالمسلمين اشتد سخطه وأقسم لينكلن بالثوار شر تنكيل ، فعزل فى الحال العامل الذى كان ابنه أصل هذا البلاء لسوء إدارته ، وعين بدلا منه قائداً حازما اسمه « كلثوم » ليثأر للهزيمة التى لحقت بالمسلمين ، ولـكن حدث فى تلك الليلة المشؤومة أن تنازع قائدان عربيان نزاعا مؤلما أدى إلى تفرقة كلمتهم ففتك البربر بهم وأعملوا السيف فى رقاب جنودهم ، غير أن الخليفة بالرغم من هـذا الفشل المريع أرسل للمرة الثانية جيشا جديدا إلى القيروان التى كان يحاصرها وقتئذ البربر والخوارج

بقيادة زعيمها « عكاشة » . وتقول لنا الرواية العربية : إن هؤلاء البربر كانوا يهجمون على المسلمين المرة تلو الأخرى باستبسال منقطع النظير ، ولكنهم كانوا فى كل مرة يبوءون بالفشل ، وكاد يفلح « كلثوم » فى طردهم إلى الصحراء . بيد أن قائداً آخر اسمه « حنظلة بن صفوان » من قبيلة كلب كان قد وصل فى تلك الأثناء على رأس الجيش الجديد ، وكان أول ما اعتنى به هو تقوية الحصون وبث روح الشجاعة فى أفراد الجيش ، ولكن ما هى إلا برهة حتى وضعت مقدرته العسكرية هو ورجاله على المحك إذ داهمهم ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل من البربر وأحاطوهم من كل الجهات ، ففزع المسلمون وارتاعوا لهول المحنة ، غير أن « حنظلة » كان من نوع أبطال العهد القديم الذين يجمعون إلى حماس الإيمان — المعروف عن عصر عمر بن الخطاب — رقة القلب النادرة المثال فى زمن اشتهر بالقسوة والاستبداد ، فوقف ذلك القائد الباسل فى وسط الساحة أمام المسجد الجامع وخطب فى الجيش وأهل المدينة خطبة حماسية قال فيها :

« إن المعركة التى ستدور رحاها بين المسلمين المحصورين وبين الثوار المحاصرين إنما هى نضال بين الموت والحياة ، وإن انتصار البربر معناه الفتك بجميع أهل المدينة من غير استثناء » .

وفيما كانت جيوش البربر تصيح وتزمجر خارج المدينة ، كان العرب يترقبون نشوب المعركة بقلوب والهة . ومما هو جدير بالذكر أن الذكور الذين يستطيعون حمل السلاح كانوا قد لبوا نداء قائدهم العظيم ، كما برهنت النساء العربيات أنهن لا زلن عنصراً نافعاً لأزواجهن وآبائهن فى ميدان القتال ، ولا سيما أنهن اعتدن حمل السلاح واستعماله فى وقت الخطر ، فألف « حنظلة » منهن قوة احتياطية تدافع عن المدينة وقت وقوع المعركة الفاصلة مع الأعداء . ومما يذكر بهذا الصدد أنه أخذ طيلة الليل يوزع الأسلحة على الجنود ويرشدهم إلى خطة القتال ، وما أن انبلج الصبح وانتهت الصلاة حتى أعدوا عدتهم وانقضوا على أعدائهم

انقضاض الصواعق ؛ وظلت المعركة تدور رحاها حتى أذنت الشمس بالمغيب فانهزم البربر شر هزيمة ، وظل الجيش العربي يعمل السيف فى رقابهم حتى فقد الثوار كل أمل فى تجمع صفوفهم أو استعادة قوتهم . وقيل إن عدد من قتل فى تلك المعركة الرائعة من البربر وزعمائهم حوالى ١٨٠,٠٠٠ ، وليس أدل على هول الموقف ومبلغ الفوز الذى أحرزه « حنظلة » من قيام المسلمين بصلاة الشكر فى جوامع « القيروان » . وهكذا استطاع القائد العظيم أن ينشر السلم والطمأنينة فى البلاد ويجعل أفريقيا تزدهر وتتمتع فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل .

الأندلس

كانت بلاد أندلوسيا التى تشتمل على شبه جزيرة أيبريان — ما عدا كسكونيا — ولانكيدوك وقسم من سافوى تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الدولة الأموية . وكانت أغلبية أهل تلك البلاد تقلد المحتلين فى أخلاقهم وعاداتهم شأنهم فى ذلك شأن أهالى المستعمرات دائما مع أسيادهم المستعمرين ، وبخاصة فى عهد الدولة العربية ؛ غير أن بعد الأندلس عن قلب الإمبراطورية أضعف من نفوذ السلطة المركزية ، كذلك كان النظام الذى تأسست حكومة تلك البلاد على دعائمه مصدراً لكثير من المتاعب ، إذ لم تكن اسبانيا تعتبر غير ولاية ثانوية تابعة لأمير أفريقيا ، وكان والى القيروان هو الذى يولى عمال الأندلس دون موافقة الخليفة على هذا التعيين . ولهذا كانت تذهب المصالح العامة بطبيعة الحال ضحية على مذبح العصبية القبلية والمنافع الشخصية ، فضلا عن أن سرعة عزل الحكام وتبديلهم كانا من أسباب نشوب الفتن والاضطرابات .

ولما قتل السمح عند أسوار تولوز اختار الجيش لقيادته عبد الرحمن الغافقى الذى لم يكد يتقلد هذا المنصب بضعة أشهر ، حتى غشى البلاد عامل جديد اسمه « عنبسة »[١] كان قد عينه أمير أفريقيا والياً على الأندلس .

عنبسة حاكم الأندلس

وقد كان عبد الرحمن على جانب عظيم من الشجاعة الحربية والكفاءة

---

(١) عنبسه بن سحيم الكلبي . (المعرب)

الإدارية ، أميناً عادلا نزيها فى رأيه ، فاستطاع أن يسيطر بلباقته على العناصر المتنازعة داخل البلاد ، حتى وصل خلفه الذى تقلد منصب الحكم فى صفر سنة ١٠٣ هجرية . وبعد مبايعة هشام بقليل زحف « عنبسة » على فرنسا فاستولى على كركسون ونيم ، وعدة مدن أخرى ذات أهمية ، كما عقد محالفة دفاعية هجومية مع الدويلات القوطية المجاورة . ويقول المسيو رينو : « إن معظم انتصارات عنبسه ، راجعة إلى المهارة وحسن الإدارة أكثر منها إلى القوة والكثرة . وقد أسفر نجاحه فى اكتساب ثقة الأهلين ونيل رضاهم عن تقوية شوكة العرب فى جنوبى فرنسا » ، كما أنه أرسل الأسرى الذين قبض عليهم الجيش العربى فى المدن الفرنسية إلى برشلونه ، حيث عوملوا بالرحمة والعطف . وقد ساعد هؤلاء على توثيق عرى الألفة بين أهالى الأندلس وبين العرب المحتلين ؛ ولكن الطالع قتل « العنبسة » فى الفتنة التى أثارها الفسقونيون فى إحدى شعاب جبل البرنيه ، فأدى موته إلى نشوب القلاقل ثانية فى الجزيرة وإلى توقيف التوغل فى فرنسا ، فأسرع نائبه المدعو « بالأذرح » إلى الأندلس على رأس جيشه . وفى غضون الخمس سنوات التى أعقبت موت « العنبسة » حتى إعادة تولية عبد الرحمن الغافقى فى سنة ١١٣ هـ ولى خمسة حكام(١) على تلك البلاد ، لم يمكث بعضهم فى دست الحكم سوى أشهر قلائل ، فتعطلت الحركة الإدارية من جراء هذه التغييرات السريعة . كما أن الثائرين وعلى رأسهم « بيلايو » استمادوا نشاطهم وقوتهم ، ولما ولى « الهيثم » على الأندلس فى سنة ١١١ هـ سعى فى تدمير حصونهم واستأنف الفتح فيما وراء البرنيه ، فسار بجيشه حتى استولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، واستولى كذلك على مدينتى وبون ، وأوتون ، وصالحته مدن أخرى على دفع الجزية . ولكن هذه الفتوحات

(١) هم على التوالى : « عذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن مسلمة الكلبى ، وعثمان ابن أبى نسعة الخثعمى ، وحذيفة بن الأحوص القيسى ، والهيثم بن عبيد الكلابى » . (المعرب)

لم تثمر ثمرتهـا المرجوة . إذ لم يستطع العرب الاحتفاظ بهذه المدن بسبب خصوماتهم القبلية ؛ كما أدت وحشية البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش العربى إلى سخط أهل سبتمانية ونفورهم من المحتلين ، فانقلبوا أعداء ألداء بعد أن كانوا من أصدق المخلصين .

تولية عبدالرحمن الغافقى على الأندلس

استدعى هشام عبد الرحمن الغافقى على أثر وفاة « الهيثم » وولاه على الأندلس فقابل الأسبانيون خبر توليته بفرح عظيم واعتبروا ذلك فاتحة عهد سعيد لخير البلاد . وكان عبد الرحمن — دون منازع — أقدر الرجال الذين تولوا الحـكم على أسبانيا وأشدهم وطنية ، فكان يجمع إلى الـكفاية الممتازة فى الإدارة نبوغاً عظيما فى الأمور العسكرية ، أما جنوده فكانوا معجبين به إلى حد العبادة ، كما أن رقة قلبه وكرمه وعدالته أكسبته محبة الشعب . ومن المأثور عنه أنه زار فى أوائل حكمه المدن والدساكر ليحل بنفسه الخلافات والمنازعات ، وينظر فى الشكايات التى تدفقت عليه من كل حدب وصوب ، فعزل القضاة الذين ثبت لديه خيانتهم أو الإخلال بوظائفهم ، وعين فى مكانهم قضاة مشهورين بحسن السمعة وطيب الأحدوثة ؛ وفى حكمه كذلك عوملت مختلف الطوائف والملل معاملة واحدة دون تمييز بين الجنس والعقيدة ، كما أعيدت الـكنائس إلى أصحابها التى اغتصبت منهم ، ونظمت الإدارة وشؤون المـال ، وعوقب من يخل بالأمن بأشد أنواع العقاب ، ولـكن كل هـذه الأعباء لم تصرفه عن صيانة الحدود الشمالية ، إذ كانت تعتلج فى صدره أمنية ملـكت عليه لبه وهى الأخذ بالثأر للهزيمة التى منى بها العرب على مقربة من تولوز ، كما أنه كان يتوق إلى إحراز انتصارات لا تقل أهمية عن انتصارات طارق بن « زياد » « وموسى بن نصير » فحملته هذه الرغبات الحادة والآمال البراقة يبذل جهداً متواصلا لجمع جيش كثيف يسير به إلى الشمال ، وقد كان الحماس الدينى لا يزال وقتئذ يعمر قلوب المسلمين ، كما كان الشوق إلى خدمة قائد شجاع مثله يدفع بالألوف المؤلفة من المتطوعين إلى الانتظام فى سلك الجيش .

ثورة مانوزه

كان يحكم قردجان التى تقع فى الجانب الآخر من جبال البرنيس حاكم مسلم اسمه « عثمان بن أبى نسعة » أو كما يسميه الكتاب المسيحيون (مونوزه) وكان قد تزوج من لامبيكى الجميلة ابنة « أودى » ديوك « أوف اكويتين » وتحالف مع أبيها ، وبإيعاز من حميه شق عصا الطاعة على عامل الأندلس . غير أن عبد الرحمن لم يكن ممن تلين لهم قناة إزاء التمرد والعصيان ، فبعث فى الحال جيشاً إلى « الباب » ، حيث كان « مانوزه » يقيم مع زوجه الجميلة ؛ وبعد نشوب معركة بين الفريقين دارت فيها الدائرة على رجال الزعيم الثائر ، فمزقوهم شر ممزق . وفر مانوزه إلى الجبال ، فلحقت به قوة من الجيش العربى وحزت رأسه وحملت زوجه الجميلة إلى عبد الرحمن الذى أرسلها إلى دمشق ، حيث تزوجت من أحد أولاد « هشام » . ونجم عن انهزام « مانوزه » وقتله سخط الدويلات المسيحية ، التى كانت قد عقدت معه محالفات دفاعية ، فوجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى محاربتهم قبل أن يتم استعداده لغزو الشمال .

غزو شمالى فرنسا

سار « عبد الرحمن » إلى الشمال مخترقاً أراغون ، ونافارا ، حتى عبر الحدود الفرنسية فى ربيع سنة ٧٣٢ م فاجتاز وادى بيكورال وبرن . ويصف الكتاب العرب مدينة « ارنس » بأنها واقعة فى سهل موحش على نهر يبعد ثلاثة فراسخ من البحر ، وكان القائد العربى قد صالح سكانها على دفع الجزية ، ولكنهم لما سمعوا بقتل « مانوزه » رفضوا تنفيذ ما تعهدوا به ، فسار إليهم عبد الرحمن على رأس جيش كبير ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة على شواطئ الرون انتهت بسقوط المدينة فى أيدى العرب ، ثم واصل عبد الرحمن زحفه حتى غشى « بوردو » فاستولى عليها بعد مناوشات طفيفة ، وسارع إلى مقابلة « الدوك أوف اكواتين » الذى حاول عرقلة زحفه على « دوردون » فوقعت بين الطرفين معركة هائلة ، دارت فيها الدائرة على الدوق وهزم شر هزيمة . ويقول إيزودور من أهالى بيجا : « لا يعلم إلا الله وحده عدد من قتل من المسيحيين فى تلك

المعركة » . و بهذا النصر قضى عبد الرحمن على كل مقاومة فى ولاية اكواتين وسحق بورغاندى ، وأخذت راية الإسلام تخفق على أسوار ليون ، و بيزانصون وصانص ، ثم أقيمت حاميات قوية فى المدن التى احتلها القائد العربى مما أدى بطبيعة الحال إلى إنقاص عدد جيشه ، ومن هناك سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة واشتبك على شواطئ دوردون مع جيش أودوس فى معركة شديدة دارت فيها الدائرة على الأعداء الذين استنجدوا « بشارلس أو كالدوس » الابن الطبيعى « لبيان هارستال » وكان هذا بحكم منصبه (أمين بلاط مورفيكان) يتمتع بنفوذ واسع على الفرنجة ، وفى الحال رأى فى طلب أويوديس وسيلة من وسائل التوسع فاستجاب لطلبه بنشاط وفرح شديدين ، وحشد قوة كبيرة من متوحشى قبائل حدود الدانوب ، والألب ، وقفار المانيا ، وسار على رأسهم نحو الجنوب . وفى تلك الأثناء كان العرب قد غشوا مدينة طوروس ، و بعد معركة شديدة بينهم و بين أهلها استولوا عليها وأعملوا فيها النهب والسلب . و يعزو أحد كتاب العرب المصائب التى حاقت بالجيش العربى إلى غضب الإله من أعمال العنف والقسوة التى ارتكبها البربر فى طوروس برغم أوامر ضباطهم .

وفيما كان القائد العربى يحاول عبور نهر اللوار اعتماداً على الأخبار الخاطئة التى أتت بها الجواسيس عن قوة الأعداء واستحكاماتهم فاجأه « شارلس » بجموعه الجرارة ، فأسقط فى يده حينما رأى أن جيوش العدو تفوقه عدداً ، وفى الحال أمر بسحب نقاطه الأمامية ، وارتد من شواطئ النهر إلى النقطة الواقعة بين تور و بواتييه . و يمكن أن يقال إن حال جيشه كانت تدعو إلى القلق وعدم الاطمئنان ، إذ كانت الفرق المؤلفة من القبائل مثقلة بالأسلاب والغنائم ، ولما كانت قلوبهم تجيش بالحسد والبغضاء فقد رفضوا أوامره وأبوا القيام بأى عمل يستدعى التحادم حيناً من الزمن ، كما أخذوا يلحون بالانسحاب متمسكين بالأسلاب التى جمعوها فى سيرهم نحو الشمال تمسك الغريق بوسائل النجاة ، مما

أدى إلى انحلال صفوفهم و إضعاف روح النظام فيهم . فخشى عبد الرحمن بطبيعة الحال — كما تكهن « شارلس » — أنهم فى وقت المعركة لن ينزلوا عن أسلابهم بالرغم من أنها تشل حركتهم ، ولهذا فكر فى إقناعهم بالحسنى أن يتخلوا عن جزء منها ، ولكنه مع ذلك لم يصر على مطالبتهم بتنفيذ أوامره حرفياً خشـية أن تسرى فيهم روح التمرد والعصيان . وقد نجم عن ضعفه (إذا صح أن يسمى هذا ضعفاً) أخطر النتائج . أما جيش « شارلس » فكان مؤلفاً من الفرسان والرجالة ، وكانوا جميعاً يلبسون جلود الذئاب ، وقد أرسلوا شعورهم المتجعدة على أكتافهم ، فعبر بهم نهر « اللوار » على قيد بضعة أميال من معسكر العرب . واشتبك الفريقان[١] فى مناوشات طفيفة مدى ثمانية أيام رجحت فيها كفة العرب ، وفى اليوم التاسع دارت معركة شـديدة طوال النهار حتى حال المساء بين الفريقين ، ولكنهما اشتبكا فى صباح اليوم التالى فى معركة أشد هولا من ذى قبل ، فضاعف المسلمون الكفاح وكادوا يفوزون بالنصر الحاسم ، لولا أن دوت عندئذ صرخة فى صفوفهم تؤذن بإحداق العـدو بمعسكر المسلمين وسلب الغنائم ، فهلعت قلوبهم وأسرعوا فى الحال إلى الخيام يذودون عن الأسلاب والغنائم بالمهج والسواعد ، وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يهدئ خواطرهم و يعيد النظام إلى صفوفهم . و بينما كان يحضهم على الثبات أصابه سهم طائش فى صدره خر على أثره صريعاً ، فأثر مقتله أسوأ تأثير على جميع الصفوف ، فاختل نظامهم ، واختلط الحابل بالنابل ، وانتهز العدو تلك السانحة وحمل عليهم حملة منكرة ، غير أن المسلمين سرعان ما لموا شعثهم وانقضوا ثانية على العدو يوقعون به شر إيقاع ، حتى نشر الليل أجنحته فعاد كل فريق إلى موقعه .

---

(١) من الصعب تحديد الموقع الحقيقى الذى وقع فيه القتال ولكن ليس ثمة شك فى أن ميدان تلك المعركة يقع فى الأرض الواقعة بين البوكتيارس وطوروس ويرويها عـدة نهيرات تنبع من نهر اللوار .

الخصام بين القواد المسلمين

ولم يكد جنود المسلمين يعودون إلى مخيمهم حتى دب نزاع هائل بين قادة عبد الرحمن ، وشهر كل منهم سلاحه فى وجه الآخر . وعندئذ بدا فوز المسلمين بعيد المنال ، ولم يعد ثمة سبيل أمامهم إلا التقهقر ، وتحت جنح الليل البهيم سحب القواد جنودهم بهدوء ميممين شطر « سبتمانية » . وفى الغداة أحس الأعداء هدوءا مخيما على معسكر المسلمين ، فظنوا أن فى الأمر خدعة وراحوا يتقدمون بتهيب وحذر عظيمين . ولشد مادهشوا عند ما رأوا أن معسكر العرب قد هجره أصحابه ولم يبق فيه إلا بعض الجرحى الذين قعد بهم الحظ العاثر عن اصطحاب القوة المتقهقرة ، وفى الحال انقضوا على هؤلاء المساكين وذبحوهم ذبح الأنعام . بيدأن شارلس مع ذلك لم يجرؤ على اللحاق بالمسلمين ، فعاد أدراجه إلى الشمال(١) . ويمكن القول بأن العرب فى سهول تور و بواتييه ، فقدوا سيادة العالم بعد أن كانت فى متناول أيديهم ، وهكذا أدى عدم الطاعة والعصبية القبلية ، اللتان تعتبران نقمة على الجماعات الإسلامية ، إلى تلك النتيجة المحزنة . وقد أطلق على ميدان تلك المعركة الرائعة فى التاريخ العربى « بلاط الشهداء » لكثرة من قتل فيها من مشاهير المسلمين مع قائدهم عبد الرحمن . ولا يزال الأتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء فى ذلك المكان تدعو المؤمنين كل غروب إلى الصلاة . ويدعى المؤرخون الرهبان أن العرب خسروا فى تلك المعركة نحواً من ٣٦٠ ألف مقاتل ، أى ما يزيد عن أربعة أضعاف عدد الجنود الذين زحف على رأسهم عبد الرحمن إلى فرنسا ! وهذه المبالغة تكشف عن ذاتها إذا ما علمنا أنه لم تكد تمضى بضعة أشهر حتى جمع قائد الأندلس — برغم الفتن والاضطرابات — جيشاً لجباً ؛ و إن كان دون جيش عبد الرحمن فى الأجهزة والنظام . وقيل إنه

---

(١) لا شك أن تلك الموقعة كانت حاسمة من وجهة واحدة ، وهى أن عبد الرحمن كان الرجل الوحيد الذى يستطيع توحيد مضر وحمير ، ولهذا يعد موته خسارة لا تعوض إذ لم يستطع أحد بعده أن يؤثر فيهم ذات التأثير أو يتمتع بنفس النفوذ الذى كان يتمتع به على العرب .

بلغ من شدة سخط العرب لموت قائدهم العظيم أن أحرقوا دير « سوالينان » فى « ليموزين » أثناء انسحابهم إلى الجنوب .

تولية عبد الملك على الأندلس

وفى الحال أرسل نائب « عبد الرحمن » أخبار تلك الكارثة إلى أمير أفريقيا وإلى الخليفة « هشام » فى دمشق ؛ فبعث الخليفة على جناح السرعة عاملاً جديداً اسمه « عبد الملك بن قطن الفهرى » وأوصاه بأن يوجه نشاطه إلى استعادة هيبة المسلمين فى تلك البلاد . وكان أهل المناطق الجبلية فى شمال شبه الجزيرة قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وشقوا عصا الطاعة ، فزحف عليهم « عبد الملك » حتى وصل إلى « أراغون » و « نافاره » واشتبك معهم فى عدة معارك هزمهم فيها وأجبرهم على التسليم ، كما استولى بعد ذلك على « لانكيدوك » وعزز الحاميات العربية فى تلك المنطقة .

وفى عام ٧٣٤ م عقد « يوسف » نائب مقاطعة أربونة الخناصر مع « مورنتيوس » أمير مرسيليا ، الذى كان محالفاً للمسلمين ، وزحف الجيشان على الرون وأوقعا بجيش الإفرنج شر إيقاع ، فسلمت سان ريمى (التى كانت تسمى عندئذ فريتا) ، ثم زحفا على أفنون واستوليا عليها بعد حصار لم يستغرق إلا مدة قصيرة ، ومن هناك عاد عبد الملك إلى الجنوب . ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله فى رمضان سنة ١١٦ هـ ، بسبب الهزيمة التى منى بها جيشه فى شعب جبال البرنيه ؛ وإن كان المؤرخون العرب ينسبون عزله إلى قسوته وصرامته فى تنفيذ الأحكام . وولى بعده « عقبة بن الحجاج السلولى » وكان رجلا عادلا فاضلا محبوباً من جميع المسلمين ؛ وفى خلال الخمس سنوات التى تولى فيها الحكم غزا فرنسا عدة مرات ، وسار بجيشه إلى مواقع أبعد مما وصل إليها المسلمون من قبل . وتمكن العرب فى عهده من إقامة الحاميات فى المحلات المكشوفة ، وغشوا كذلك حدود نهر الرون وسميت تلك المواقع « بالرباط » التى كان الغرض من تأسيسها إقامة نقاط دفاعية استكشافية ؛ كما أنهم شيدوا فى أربونة قلعة هائلة

اختزنوا فيها الأسلحة والعتاد . وفى سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ ميلادية) وصلوا إلى دوفيبه ، واستولوا بالتتابع على سان بول ، وترواشاتو ، ودونزير وفالانس ، ونيوليونز ، ثم ساروا إلى بورغاندى حتى أصبحوا على قاب قوسين أو أدنى من عاصمة فرنسا . كذلك كانوا قد استولوا قبل سنة على مدينة بيدومون ، ثم راحوا يؤسسون المعاقل العسكرية فى النقاط المهمة . ولما تأكد « شارلس مارتيل » فى موقعة تور أنه لا يقوى على مقاومة المسلمين وحيداً ، استنجد بملك اللومباردين المسمى « بليوتبيراند » ، وفى تلك الأثناء كان « تشير يبراند » أخو « شارلس » قد زحف بجنوده البرابرة من الجهة الشرقية على المستعمرات العربية ؛ بينما أخذ شارلس يحرض البشكنس والغسقونيين على غلق ممرات البيرانس ومناوشة العرب الذين أصبحوا محاطين بالأعداء من كل جانب . فاستولى الفرنج على مدينة إيفينون بعد حصار طويل ووثبوا بالمسلمين القاطنين فيها ومزقوهم شر ممزق ثم زحفوا على ناربون وحاصروها . وهكذا تحرج موقف العرب وأخذوا يطلبون الأمداد من البحر ، ولكن الحلفاء وقفوا لهم بالمرصاد وحالوا دون أية مساعدة تأتيهم من الخارج ، بيد أن العرب المحصورين بالرغم من كل هذه الكوارث دافعوا دفاعاً مجيداً عن المدينة . ولما يئس شارلس من سقوطها رفع عنها الحصار ووجه اهتمامه إلى عرقلة سير النجدات التى أرسلت لمساعدة سكان المدينة المحصورين ، وحول فى سبيل هذه الغاية بقعة كبيرة من الأرض العامرة فى جنوبى اللوار إلى بلقع قفر ، وهدم مدينتى « بيزيه » و « ادج » وعدة مدن أخرى هامة كان العرب قد جلوها ، وذهبت مدينة نانى بمسرحها الفخم وتماثيلها العظيمة طعمة سائغة للنيران . ويعتبر حتى مؤرخو فرنسا هذه الأفعال الجنونية عملا مشيناً جديراً بالرثاء . وقد خربوا كذلك مدينة « ماكيكون » بعد أن كانت قد وصلت إلى درجة عظيمة من الازدهار لم تعرفها فى عهد القوطيين أو الفرنج .

وبينما كانت هذه الحوادث تقع فى فرنسا كانت أفريقيا تعصف بها ريح

الفتن التى لم تلبث أن سرت عدواها إلى بلاد الأندلس ، فثار « عبد الملك بن قطن » عامل الأندلس المعزول مع جماعة كبيرة فى سنة ١٢٣ هـ ، و بعد أن فتك بعامل الأندلس الجديد استولى على زمام الحكم ، ولكنه لم يلبث طويلا فى منصبه حتى وصل « بلج »[١] إلى الأندلس على رأس الثائرين من أهل الشام وكانوا قد فروا من موقعة جيش كلثوم[٢] فى أفريقيا فأضافوا بوصولهم إلى الأندلس عنصراً جديداً من عناصر الشغب والفتن . وما عتم الزعيمان الثائران أن اشتبكا فى معركة دموية هائلة أسفرت عن قتل « عبد الملك » . وعندئذ أمر « بلج » بصلبه ولكن « بلج » نفسه لم يلبث طويلا أن لحق به متأثراً من الجروح التى أصابته فى المعركة .

وعلى أثر وفاة بلج ولى جنود الشام « ثعلبة بن سلامة » أحد زملائهم الأكفاء على الأندلس ، وبدأت الفتن الداخلية تستعر بشدة ، فمال المولدون « مسلمو الأسبان » إلى أولاد عبد الملك ، كما تحزب جنود الشام إلى رئيسهم الذى انحاز إليه البربر أيضاً . وهكذا توقف دولاب الإدارة فى تلك البلاد ، وهجر العرب مراكزهم العسكرية فى فرنسا ، وسارع أمير حامية نوربون مع خيرة جنوده إلى نجدة عبد الملك وأولاده ، وفقدت البلاد الأخرى التى كانت فى أيدى العرب أحسن جنودها . ولو أن « بابين القصير » الذى خلف والده تشارلس هجم على تلك المراكز وقتئذ لأخذها دون أية مقاومة ، ولكن الدروس التى كان بابين قد تلقاها فى المعارك السابقة لم تكن قد محيت بعد من ذاكرته أثر الهزائم التى تكبدها ، ولهذا عقد النية على أن يتريث حتى تتضعضع قوى العرب فى الفتن الداخلية فينقض عليهم بجنوده .

و بينما كان المسلمون فى آسيا يتطاحنون فيما بينهم ، كانت الأمور فى دمشق

---

(١) بلج بن بشر القشيرى .

(٢) كلثوم بن عياض .

بالرغم مما أحرزه جيش الخليفة من نجاح فى آسيا الصغرى ، تسير من سيئ إلى أسوأ ؛ فقد كان على العراق عامل اسمه « خالد » ظل يحكم البلاد بالعدل والإنصاف منذ تولية « هشام » ، ولكن تسامحه أثار عليه حفيظة كثير من الأعداء الذين راحوا يتألبون عليه ، ويسممون أفكار هشام نحوه ، ويتهمونه بالعطف على الهاشميين . وقد كان هشام نفسه بخيلا مقترا ، ولعل هذا البخل وحده هو الذى حدا به إلى تصديق تلك الوشايات ، وإلى اتهامه بابتزاز ثروة طائلة من الناس ، ولم تكد تمضى سنة ١٢٠ هـ حتى عزله وعين بدلا منه مضريا اسمه « يوسف بن عمر الثقفى » الملقب بالمنافق ، وكان رجلا قاسى القلب متقلب الأهواء ، فراح ينزل بخالد أشد أنواع العذاب لكى يحمله على الاعتراف بالأموال التى ابتزها ، ولكن الخليفة لم يعتم أن فك سراحه وحده دون بقية المسجونين من بنى هاشم .

ثورة زيد حفيد الحسين

كذلك حدث فى تلك الأثناء أن طلب «زيد» حفيد الحسين من هشام بعض المساعدة ، ولما أعرض عنه هشام وأهمل شأنه خرج من لدنه ساخطاً ، وسافر فى الحال إلى الكوفة موطناً النفس على القيام فى وجه الخليفة بالرغم من نصائح أهله بألا يركن إلى أهل العراق ، ولكنه أصر على شق عصا الطاعة ، فلم يلبث أن منى بالهزيمة وقتل فى الميدان . والمعروف أن أصحابه كانوا قد حرصوا على دفنه خلسة ، بيد أن الخليفة الأموى أمر عامله بأن ينبش قبره ويحرق جسمه ثم يذريه فى الرياح على الفرات ، وهو عمل وحشى أقل ما يقال فيه أنه مجرد من العاطفة الإنسانية ، كما أثار على الأمويين نقمة كثير من المتبرمين والساخطين ، وفى الحال فر « يحيى بن زيد » إلى خراسان ، وقد كان شابا عالى الهمة فى السابعة عشرة من عمره .

ومما يلاحظ أن الدعوة العباسية نالت بموت « زيد » أكبر تعضيد ، إذ زال من طريقها منافس قوى وخصم عنيد ، كما تصادف وقوع هذا الحادث مع

ظهور « أبي مسلم الخراسانى » الذى يعتبر فى الواقع سبب سقوط الدولة الأموية .
وفى عام ١٢٤ هـ توفى محمد حفيد العباس صاحب فكرة إقصاء بنى أمية عن الخلافة وإحلال أحفاد الرسول محلهم ، تاركا لابنه الأكبر « إبراهيم » مهمة تحقيق تلك الأمنية .

أبو مسلم الخراسانى

ولد أبو مسلم الخراسانى [١] فى أصفهان وهو يمنى الأصل من عائلة عربية ، وكان قد اتصل فى بادئ أمره بمحمد بن على بن العباس ، الذى أعجب بذكائه وقدرته على تنظيم الجمعيات السرية ، فأوفده إلى خراسان ليرأس الحركة العباسية هنالك ، فاستطاع بما أوتى من حسن البيان وقوة الجنان أن يجذب إلى الدعوة الهاشمية عدداً كبيراً من الناس ، وقد قوى أمره وظهر سلطانه على أثر وفاة هشام الذى قبض فى الرصافة فى قنسرين فى ربيع الثانى عام ١٢٥ هـ ، وبويع بالخلافة بعده ابن أخيه « الوليد الثانى » [٢] .

وفى عام ١١٣ هـ توفى الإمام « محمد الباقر » وخلفه ابنه جعفر الصادق .

---

(١) يقول المسعودى : « إنه تنوزع فى أمر أبى مسلم ، فمن الناس من رأى أنه كان من العرب ومنهم من رأى أنه كان عبدا فأعتق » . (المعرب)

(٢) زارت حفيدة وتيشا المسماة « الأميرة سارة » بلاط الخليفة هشام تستنجده وتطلب إليه الفصل بينها وبين عمها الذى اغتصب أملاكها وأملاك أخيها ، فقابلها هشام مقابلة حسنة ، وأسكنها فى قصر زوجه ولم يكتف بإعادة أملاكها إليها بل زوجها أيضاً من نبيل من النبلاء العرب عادت معه إلى أسبانيا ، وظلت متمسكة بديانتها ، غير أن أبناءها ربوا على الديانة الإسلامية ، وتمتع أحفادها بمركز ممتاز فى تلك البلاد ، وكان يلقب أحدهم بابن القوطية ، وكان عالما فاضلا .